

تحت ضربات عدم القدرة على إيجاد معادل موضوعي لحب عاطفي . وماض موضوعي هو ماضي الأسرة الإقطاعية التي إنتهى دورها ، فتحاول بعث أمجادها ببعث التواريخ القديمة و إعادة صياغتها ، وأمين يعيش نقطة تقاطع هذين المستويين في زمنين منفصلين : **الزمن الأول** هو الزمن الذاتي انه الجلد القديم الذي يلتصق على جسد البطل ، ولا يستطيع منه خلاصا . فعلاقة الحب التي ربطته بسمية ، ثم تحول هذا الحب الى زواج دام سنتين دون ان ينتج عائلة ، اي دون ان يصل الى تأسيس بداية موضوعية للعلاقة بالمقياس الاجتماعي السائد ، هذا الحب المستحيل موضوعيا ، يتحول في ذاتية أمين الى احساس عارم بالفشل . انه فشل ذاتي ، او هو بمقياس اكثر دقة ، فشل محاولة كسر التقاليد دون اساس ثابتة ، لذلك يتحول من فشل أمين الشخصي الى فشل النموذج الرومانسي الذي لا يزال يلعبه .

والزمن الثاني هو استتباع ذاتي وموضوعي للزمن الاول . ذاتي : لانه ينطلق من الفشل ليصل الى اليأس ، عند نقطة اليأس هذه تصبح الموهبة مجرد صنعة يستطيع أمين استخدامها وتوظيفها في خدمة قضية لا يؤمن بها اساسا . وموضوعي : لانه يوظف في خدمة طبقة انهارت تاريخيا وهي لا تزال تحلم على الاقل بتخليد امجادها . فيتقاطع الذاتي بالموضوعي ، حين يصبح مبرره الوحيد في نقطة اليأس الكاملة . يولد هذا اليأس نمطا رتبيا من الحياة ، ويتشكل من داخل علاقة متوازنة داخل دائرة محكمة الاغلاق . فما دامت الرواية تعيش في زمنين من الذاكرة ، فان كسر اطرافها المغلق يصبح عملية مستحيلة . فالفعل الموضوعي الذي يتمثل في الرواية عادة بشبكة من العلاقات الاجتماعية غابت كليا في هذه الرواية . اي نحن امام علاقة احادية — فرد مجتمع . والمجتمع هنا ضيق الى ابعد الحدود . انه الزوجة في الماضي وعناية وركزان في الحاضر . لذلك تنفجر الرواية في مستويين : — المستوى الاول هو مستوى الحدث الطبيعي . وفاة عناية هانم وتبرد ركزان على تراث شقيقتها ورفضها لتابعة كتابة قصة العائلة ، هذا المستوى الاول يبدو افتعاليا ، فحين يضيف المؤلف بأبطاله او يجدهم في مازق حقيقي ، فان اسهل الامور هو قتلهم . لكن جبرا حين اختار

قتل عناية هانم من خلال الحدث الطبيعي ، فانه اراد التأشير الى المستوى الثاني : الرمز داخل الرمز يصبح الحدث الطبيعي اشارة الى المستقبل . تفجر الواقع من داخله على ايقاع رمزين متداخلين : الماء والنار . فاذا كانت سمية قد تخلت عن زوجها بعد طوفان الماء في الحي الشعبي الذي كان يقيم فيه ، فانه حين يرفضها ويرفض ركزان في نهاية الرواية ، فانه يرفضها على وهج النار التي تحرق الماضي . ركزان تحرق قصرها الكبير وأمين يرفض حبه الرومانسي الماضي ويبدأ في إعادة اكتشاف العالم . « غير ان الطريق لم تظل خالية طويلا ، ما هي الا فترة قصيرة حتى كانت شوارع المدينة تهدد وتتشعب امامي . تملؤها جموع الناس . ولم يكن من المسير علي ، حين حدثت في عيونهم ، ان ادرك ان الكثيرين منهم كانوا هائمين على وجوههم ، كما كنت هائما لسنتين مدينتين ، يبحثون عن نهاية لليل طويل وبداية لحياة جديدة » . داخل الماء جرت عمادة أمين في مرارة الواقع ، كانها لتذكره بطولته البائسة . وداخل النار جرى تحطيم العالم البائس الذي عاشه . بين الماء والنار ، داخل العناصر الطبيعية الاكثر النصالقا بالانسان ، فجر جبرا الدائرة المغلقة التي حاصرت بطله . وخرج من تجربة ذاتية الى كتابة الرواية الاجتماعية التي ستبلغ ذروة احكامها البنائي في « السفينة » .

حصار اللغة

كتبت هذه الرواية لأول مرة باللغة الانكليزية (من حوار مع جبرا سوف نتشره شؤون فلسطينية في عدد قادم) ، ثم ترجمها المؤلف بنفسه ونشرها في بغداد بعد حوالي عشر سنوات على كتابتها . مسألة اللغة هي في جوهرها تعبير نموذجي ، عن اشكالية ولادة الرواية العربية الحديثة . واذا كان تضخم هذه المشكلة هنا ، ليس عاما . فانها تؤكد الانقطاع النسبي الذي ادى الى ولادة الرواية العربية . فرواية « صراخ في ليل طويل » هي من المحاولات التأسيسية الاولى التي استطاعت وضع اطارات التطور الادبي في الرواية داخل حقل الممارسة الاجتماعية . انه يتخطى نهائيا عن الوعظية ، وعن الجملة العاطفية الطويلة ، ويحاول ان يقيم لغة جديدة ايمالية وواضحة منذ البداية . فنعكس هذا الطموح على السياق الروائي في ناحيتين : فهناك من جهة اولى